التطبيقات العملية للتسامح الإسلامي مع غير المسلمين

د. عبد الرازق ضرغام عيسى*

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوصى بمعاملة غير المسلمين خيراً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا ﴾ [التوبة: 6] وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي جاء بدين يدعو إلى السماحة في القول والعمل مع المسلمين وغير المسلمين، وشهد بذلك القريب والبعيد. أما بعد:

فإن الله تبارك وتعالى شرع لعباده ديناً قويماً، وهداهم صراطاً مستقيماً، من اتبعه رشد واهتدى، ومن ضل عنه فقد خسر خسراناً مبيناً، وهذا الدين الذي بعث الله به سيد المرسلين ﷺ دين خاتم، مهيمن على جميع الأديان قبله، وهو رسالة الله الخاتمة إلى جميع الثقلين إلى قيام الساعة، واقتضى ذلك أن يكون في هذه الرسالة من الخصائص والسمات ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، ولجميع أمم الأرض، وأعظم هذه الخصائص وأجلها السماحة واليسر، في كل شأن من شئون الحياة، في العبادات، والمعاملات، والأخلاق، والآداب مع المسلمين وغير المسلمين.

وسماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين أحد الموضوعات التي حظيت باهتمام العلماء قديماً وحديثاً، ومن ينظر إلى التراث الإسلامي يجد ذلك جلياً ظاهراً،

* الجامعة الأسمرية.

ويجد رصيداً حضارياً هائلاً تزخر به كتب الفقه الإسلامي في معاملتهم غير المسلمين، وهذه أحد صور عظمة الإسلام في واقعيته وعالميته، فقد قضى الله سبحانه وتعالى أن يعم دينه جميع أمم الأرض، وفي ذلك شهادة بأن الإسلام دين الرحمة والإحسان والعدالة والإنصاف.

ومن نعم الله على الإنسانية إرسال نبينا محمدٍ ﷺ بالحنيفية السمحاء رحمة للعالمين، وهذه الرحمة ذات صور من الود والتسامح والعفو والتناصح، تضافرت نصوصها من القرآن والسنة، وتجسدت مرحلتها الأولى في المدينة النبوية، من خلال تعامله ﷺ مع المسلمين وغيرهم، فقد اجتمعت الأقوال والأفعال، وإذا بقاموس يشتمل على جميع مفردات السماحة، يتحرك في شتّى نواحي الحياة.

ومع هذا فإن بعض الناس الذين لا يعرفون حقيقة هذا الدين يظنون أن الإسلام لا يعرف العفو والصفح والسماحة، وإنما جاء بالعنف والتطرف والسماجة؛ لأنهم لم يتحروا الحقائق من مصادرها الأصلية، وإنما اكتفوا بسماع الشائعات والافتراءات من أرباب الإلحاد والإفساد، الذين عبدوا الشهوات، ونهجوا مسلك الشبهات بما لديهم من أنواع وسائل الإعلام المتطورة، المسخرة لخدمة أعداء الإسلام.

والسماحة لا تعني الضعف والذل، فالإسلام يأبى الضيم، ويرفض لأتباعه الذل والهوان، فالمؤمن عزيز بإيمانه وإسلامه قوي بهما، ومن يظنون السماحة والصفح والحلم والعفو ضعفاً لا يدركون عظمة هذا الدين، والسماحة كبقية المعاني العظيمة التي جاء بها الإسلام، كالوسطية والتيسير والعدل والعفو والصفح وغير ذلك لها ضابطها الشرعي الذي إن حادت عنه كانت عقبة كؤوداً في فهم طبيعة الإسلام.

والذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع بيان الحق، ودمغ الباطل بالأدلة الساطعة، والحقائق الناطقة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، القولية والفعلية، والتاريخ الأصيل، من شهادات غير المسلمين، والحق ما شهدت به الأعداء،

وإماطة اللثام عن وجه الحق والصدق في هذه القضية، بعيداً عن التعصب لدين، أو التحيز لمذهب، تأسيساً على النصوص المقررة، والثوابت الدينية الناطق بها القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهما الأساس الذي يقوم عليه الإسلام، ليتضح زيف الطاعنين أمثال كارل بركلمان الذي أعماه التعصب والحقد، حين رمى الإسلام بما ليس فيه، فقال:

« من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلا عندما كان يهدف إلى الغزو »[1].

وقال أيضاً: « في القرن السابع للميلاد برز في الشرق عدو جديد، وذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات »[2].

وقد سرت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي، حيث استقرأت النصوص التي وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة، فلا أستدل بحديث موضوع أو ضعيف؛ وما جاء من سيرة السلف الصالح ﷺ، وأقوال غير المسلمين التي تدل على التسامح الإسلامي مع غير المسلمين، واعتمدت كذلك على المنهج الاستدلالي فلا أقدم شيئاً إلا بدليل يدل عليه.

وسوف ينتظم الحديث عن هذه القضية في ثلاثة مباحث بعد تمهيد في مفهوم السماحة:

المبحث الأول: تقرير القرآن الكريم والسنة المطهرة لمبدأ التسامح مع غير المسلمين.
المبحث الثاني: صور تطبيقية من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين.
المبحث الثالث: شهادات غير المسلمين لسماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين.

تمهيد: مدلول السماحة

قبل الشروع في بسط الموضوع يجدر بنا إلقاء الضوء على مفهوم السماحة، ووضع الضابط الصحيح لها، حتى لا يختلط الأمر على قليلي العلم من المسلمين وغير المسلمين.

يتحدد مفهوم السماحة من خلال معرفة مدلولها اللغوي حيث يذكر ابن فارس في معجم مقاييس اللغة أن السين والميم والحاء أصل صحيح يدل على سلاسة وسهولة[3]. والمسامحة: المساهلة[4].

1- تاريخ الشعوب الإسلامية: ط دار العلم للملايين بيروت ط 4، 1965ص 78.
2- البحث عن الدين الحقيقي: المنسيور كولي ط 1928. ص 220.
3- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مكتبة الخانجي، مصر، ط3، 1402 هـ ج3 ص99.
4- انظر: النهاية في غريب الحديث، مجد الدين ابن الأثير، دار أنصار السنة، لاهور، د ت، ج 2 ص 398.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺقال: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[5]. قال ابن حجر: السمحة: السهلة، أي أنها مبنية على السهولة[6]. والسماحة تشمل أصول الدين وفروعه، وصورها لا تحصر، فعقيدة الإسلام سمحة وشريعته سمحة، وتمتد صور السماحة إلى المعاملة.

وقد بوب الإمام البخاري -رحمه الله- للسماحة في هذا الحديث بالسهولة فقال: باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، قال ابن حجر: «وفي الحديث: الحث على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحنة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة وأخذ العفو منهم»[7]. وقيل هي: بذل ما لا يجب تفضلاً[8].

المبحث الأول: تقرير القرآن الكريم والسنة المطهرة مبدأ التسامح مع غير المسلمين

المطلب الأول: القرآن الكريم ومبدأ التسامح

لقد حوى القرآن الكريم عدداً كثيراً من الآيات الواردة في سماحة الإسلام مع غير المسلمين، وجاءت أخرى تحذر من ظلم غير المسلمين من أهل العهد والذمة، ومن أبرز هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا

5- البخاري ك الإيمان، ب: الدين يسر. ح (الحديث) 39.

6- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: دار المعرفة، بيروت، 1379، ج1 ص 94.

7- المصدر السابق: ج 4 ص 207.

8- التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني: دار الكتاب العربي، بيروت ط 1، 1405تحقيق: إبراهيم الأبياري ص 160.

رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: 105-113].

وسبب نزول هذه الآيات: أن رجلاً مسلماً من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر بن الحارث سرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم: والله ما أخذها وما له به من علم، فقال أصحاب الدرع: بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إلى طعمة بن أبيرق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك، فقالت بنو ظفر وهم قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فكلموه في ذلك، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبريء اليهودي، فهم رسول الله ﷺ أن يفعل وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهودي حتى أنزل الله تعالى الآيات(9).

وفي هذه الآيات عتاب من الله تعالى لنبيه ﷺ؛ لأن عاطفته مالت إلى نصرة المسلم مع أن الحق مع اليهودي، فهل بعد ذلك من عدل وسماحة؛ لأن دين الله تعالى ليس فيه مجاملة لأحد على حساب أحد، ولو كان أقرب الناس رحماً ونسباً.

وقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة: 8-9].

وسبب نزول هاتين الآيتين ما روي عن مصعب بن ثابت، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا وضباب وسمن وأقط، فلم تقبل هداياها ولم تدخلها منزلها، فسألت لها عائشة النبي ﷺ

9- أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1422 /2001 تحقيق: كمال بسيوني زغلول ص 183.

عن ذلك، فقال ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ الآية. فأدخلتها منزلها، وقبلت منها هداياها(10).

هذه قاعدة شرعية وضعها الله عز وجل في التعامل مع غير المسلمين إن لم يعتدوا على المسلمين، ولم يتعرضوا لهم بسوء، وإن لم يؤلبوا عليهم غيرهم، ولم يسعوا بالإفساد بين أفراد المجتمع المسلم، فلا حرج على المسلمين أن يبروهم ويعاملوهم معاملة حسنة، ويحسنوا إليهم ليعلموا أن المسلمين لا يعتدون على الأبرياء الآمنين، أما إذا قاتلوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم، وسعوا لتحريض غيرهم على المسلمين فلا يحق للمسلمين أن يعاملوهم ويحسنوا إليهم؛ لأن في ذلك عوناً لهم على الاعتداء على المسلمين.

تلك هي روح السماحة التي تبدو في حسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان، وهي الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية، ولا يغني فيها قانون ولا قضاء، وهذه روح لا توجد في غير المجتمع الإسلامي بهذا المستوى الرائع إن وجدت، ناهيك عن أن تفتقد أصلاً، وتتجلى هذه السماحة في مثل قول القرآن الكريم في شأن الوالدين المشركين اللذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]. أخرج أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي قال: إن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت هذه الآية ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15] كنت رجلا برا بأمي فلما أسلمت قالت: يا سعد وما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا، أو لا آكل، ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال يا قاتل أمه، قلت: يا أمه لا تفعلي، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوما وليلة لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوما آخر وليلة وقد اشتد جهدها فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت فنزلت هذه الآية(11).

قوله تعالى ذكره: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾ أيها الإنسان، والداك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي﴾ في

10- أسباب النزول: الواحدي: ص444.

11- الدر المنثور: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي: دار الفكر، بيروت، 1993 ج 6 ص 521.

عبادتك إياي معي غيري، مما لا تعلم أنه لي شريك ولا شريك له تعالى ذكره علوّا كبيراً، ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فيما أراداك عليه من الشرك بي، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يقول: وصاحبهما في الدنيا بالطاعة لهما فيما لا تبعة عليك فيه، فيما بينك وبين ربك ولا إثم.

وقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 15] فإن إلى مصيركم ومعادكم بعد مماتكم، فأخبركم بجميع ما كنتم في الدنيا تعملون من خير وشرّ، ثم أجازيكم على أعمالكم، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته[12].

والقرآن الكريم يصف الأبرار من عباد الله فيقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 8-9] ولم يكن الأسير حين نزلت الآية إلا من المشركين؛ والدليل على ذلك ما جاء عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن علي بن أبي طالب ﷺ نوبة (ذات مرة) أجر نفسه يسقي نخلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح وقبض الشعير وطحن ثلثه، فجعلوا منه شيئاً ليأكلوا يقال له الخزيرة، فلما تم إنضاجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام، ثم عمل الثلث الثاني، فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأل فأطعموه ثم عمل الثلث الباقي، فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين فأطعموه وطووا يومهم ذلك، فأنزلت فيه هذه الآية[13].

وفي قول القرآن الكريم إجابة عن شبهة بعض المسلمين في مشروعية الإنفاق على أقربائهم وجيرانهم من المشركين، حيث جاء قوله عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا﴾ [البقرة: 272].

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: ليس عليك يا محمد هدي المشركين إلى الإسلام، فتمنعهم صدقة التطوع، ولا تعطيهم منها ليدخلوا في الإسلام حاجة منهم إليها، ولكن الله يهدي من يشاء من خلقه إلى الإسلام فيوفقهم له، فلا تمنعهم الصدقة[14].

12- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، 1420 هـ-2000 م ج 20ص 139.

13- أسباب النزول: للواحدي ص 470.

14- جامع البيان: الطبري ج 5 ص 785.

وفي القرآن الكريم آيات عديدة تحث على السماحة مع غير المسلمين، وقد اكتفيت بهذه الآيات تجنباً للإطالة، ليعلم الجميع أن الإسلام لا يظلم أحدا في دياره ممن يعيش ملتزماً مسالماً.

المطلب الثاني: السنة المطهرة ومبدأ التسامح مع غير المسلمين

أولاً: السنة القولية

المتتبع للسنة المطهرة يجد فيها عدداً كبيراً من الأحاديث التي تحث على السماحة مع غير المسلمين، ومن ذلك ما روي عن أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِى بَكْرٍ قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَىَّ أُمِّى وَهِىَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدِمَتْ عَلَىَّ أُمِّى وَهْىَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّى قَالَ «نَعَمْ صِلِى أُمَّكِ»(15).

ففي هذا الحديث لم يمنع النبي ﷺ أسماء من صلة أمها؛ لأنها لم تكن من الذين حملوا السلاح على المسلمين، وأخرجوهم من ديارهم، فلها حق الصلة.

بل لقد توعد الله تعالى المسلم الذي يقتل أحدا من غير المسلمين دون تعد منه عليه بالحرمان من الجنة فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رضي الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»(16).

وبهذا نعرف عدوان أولئك المغرورين الذين يعتدون على أموال الكفار المعاهدين ظلماً وعدواناً سواء كان الكافر في بلدك وهو معاهد، أو أنت في بلده، فإننا ربما نسمع من بعض الشباب المسلم في بلاد الكفر يقول: إنه لا بأس أن نفسد أموال هؤلاء الكفار، فيعتدون على أنوار الشوارع، والمتاجر، والسيارات، وهذا حرام عليهم -سبحان الله- قوم احتضنوكم وأنتم في عهدهم وليسوا هم في عهدكم فتخونون، -سبحان الله- هذا أشد ما يكون تشويهاً للإسلام وقدحاً في الإسلام.

وتتجلى هذه السماحة في معاملة الرسول ﷺ لأهل الكتاب يهودا كانوا أو نصارى، فقد كان يزورهم ويكرمهم، ويحسن إليهم، ويعود مرضاهم، ويأخذ منهم

15- مسلم: ك الزكاة: ب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين ح 2372.

16- البخاري: ك: الجزية ب إثم من قتل معاهدا بغير جرم. ح3166.

ويعطيهم؛ ليعطي أمته المثل الأعلى في معاملة غير المسلمين؛ ليقتدوا به.

ولم يفرق النبي ﷺ بين الوصية بغير المسلمين بين قوم دون قوم، فهاهو يتجه بوصيته إلى أقباط مصر، حيث إن لهم شأناً خاصاً ومنزلة متميزة، فقد أوصى بهم رسول الله ﷺ وصية خاصة، يعيها عقل كل مسلم ويضعها في السويداء من قلبه. فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ(17) فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ فِي مَوْضِعِ لَبِنَةٍ فَاخْرُجْ مِنْهَا ». قَالَ فَمَرَّ بِرَبِيعَةَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنَيْ شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ يَتَنَازَعَانِ فِي مَوْضِعِ لَبِنَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا(18).

وقد روت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: « الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله »(19).

وعن أبي عبد الرحمن الحبلي، وعمرو بن حريث، أن رسول الله ﷺ قال: « ... فاستوصوا بهم خيرًا، فإنهم قوة لكم، وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله »(20) يعني قبط مصر وقد صدَّقَ الواقع التاريخي ما نبأ به الرسول ﷺ، فقد رحب الأقباط بالمسلمين الفاتحين، وفتحوا لهم صدورهم، برغم أن الروم الذين كانوا يحكمونهم كانوا نصارى مثلهم، ودخل الأقباط في دين الله أفواجًا.

فهذه بعض الأحاديث النبوية الشريفة، وغيرها كثير تدعو إلى التسامح الإسلامي مع غير المسلمين، وتؤصل منهج الإسلام في ذلك، وتضع الأسس والمبادئ لمن يخلف

17- القيراط: جزء من أجزاء الدرهم والدينار وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به، ولا يزالون كذلك بالنسبة للمساحة والصاغة وغيرها، وكل شيء قابل لأن يقسم إلى 24 قيراطًا، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا، أو قال: ذمة وصهرًا. والرحم التي لهم: كون هاجر أم إسماعيل عليه السلام منهم، والصهر: كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم. رياض الصالحين: النووي: حديث (334) ط. المكتب الإسلامي.

18- مسلم: ك: فضائل الصحابة: ب وصية النبي ﷺ بأهل مصر. ح 6657.

19- مجمع الزوائد: للهيثمي: ج 10 ص 62، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

20- رواه ابن حبان في صحيحه كما في الموارد (2315) وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ج 10 ص 64.

رسول الله، ويتولى أمر المسلمين؛ حتى لا يطغى على أهل الذمة.

ثانياً: السنة العملية

لم تكن وصية النبي ﷺ بغير المسلمين مجرد كلام يردده فقط؛ بل كانت واقعاً عملياً طبقه معهم؛ ليكون منهجاً للتعامل مع غير المسلمين من بعده، وقاعدة شرعية ينطلق المسلمون من خلالها بعده ﷺ فعن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: قال كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»(21).

هذا منهج الإسلام في معاملة غير المسلمين، ليس فيه ظلم، ولا اعتداء على حقوق غير المسلمين المادية والمعنوية، ليعطي للمنظمات الدولية ومنظمات حقوق الإنسان المنهج الأسمى في التعامل مع المخالف، وليس المنتظر أن يكون المقابل منهم ما يحدث الآن في بلاد المسلمين المغتصبة من قتل للأطفال والنساء والشيوخ الذين لا ذنب لهم في شيء.

وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها، وهي تحريم الغدر، وتحريم

21- مسلم: ك: الجهاد والسير: ب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بآداب الغزو ح 1731.

الغلول، وتحريم قتل الصبيان إذا لم يقاتلوا، وكراهة المثلة، واستحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى، والرفق بأتباعهم، وتعريفهم ما يحتاجون في غزوهم، وما يجب عليهم، وما يحل لهم، وما يحرم عليهم. وما يكره وما يستحب.

ولهذا كله اشتدت عناية الإسلام منذ عهد النبي ﷺ بدفع الظلم عن أهل الذمة، وكف الأذى عنهم، والتحقيق في كل شكوى تأتي من قِبَلِهم، وهذا مدون في تاريخ الإسلام.

ومن المواقف الدالة على سماحته ﷺ مع غير المسلمين هذا الموقف مع يهودي يدعى زيد بن سعية أراد أن يختبر حلمه ﷺ: قال زيد لم يبق شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، قال فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فذكر قصة إسلافه للنبي ﷺ مالا في ثمرة، قال فلما حل الأجل أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه وهو في جنازة مع أصحابه، ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل قال فنظر إليّ عمر وعيناه يدوران في وجهه كالفلك المستدير ثم قال يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرى، فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم ثم قال أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضي؛ اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزد عشرين صاعا من تمر، فأسلم زيد بن سعية ﷺ، وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ، وتوفي عام تبوك رحمه الله[22].

أما سماحته مع اليهود فتتجلى عند ما قتل أحد الصحابة في أحد أحياء اليهود بخيبر فقد رضي وقبل ﷺ يمين اليهود إذ أقسموا أنهم لم يقتلوه ولم يعلموا قاتله فعن بُشَيْر بْنِ يَسَارٍ زَعَمَ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ سَهْلُ بْنُ أَبِي حَثْمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ انْطَلَقُوا إِلَى خَيْبَرَ فَتَفَرَّقُوا فِيهَا، وَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلاً، وَقَالُوا لِلَّذِي وُجِدَ فِيهِمْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا. قَالُوا مَا قَتَلْنَا وَلاَ عَلِمْنَا قَاتِلاً. فَانْطَلَقُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ انْطَلَقْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَوَجَدْنَا أَحَدَنَا قَتِيلاً. فَقَالَ «الْكُبْرَ الْكُبْرَ». فَقَالَ لَهُمْ «تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ

22- الخصائص الكبرى: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ-1985ج 1 ص 25.

قَتَلَهُ». قَالُوا مَا لَنَا بَيِّنَةٌ. قَالَ «فَيَحْلِفُونَ». قَالُوا لاَ نَرْضَى بِأَيْمَانِ الْيَهُودِ. فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبْطِلَ دَمَهُ، فَوَدَاهُ مِائَةً مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ[23].

ولو تتبع القارئ المعاهدات التي صدرت عن النبي ﷺ لوجد فيها ضروبًا من التسامح والموادعة والمساواة، ومن هذه المعاهدات إعلان دستور المدينة الذي اشتمل على سبع وأربعين فقرة منها ما يخص موادعة اليهود كما يأتي:

- «أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- أن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.
- أن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.
- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ»[24].

فهل عرفت المواثيق الدولية والنظم البشرية مثل هذه المعاهدات ليعرف كل إنسان حقه حتي لا يظلم، ويضيع حقه وسط الأقوياء.

وكذلك يمثل سماحة النبي ﷺ عفوه عن عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي «بينما كان النبي ﷺ يقسم فقال له: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال دعه، فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر نضيّه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه -أو قال ثدييه- مثل ثدي المرأة، أو قال مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس، قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ، قال: فنزلت فيه

23- البخاري، ك الديات، ب القسامة ح 6898.

24- السيرة النبوية: لابن هشام ط دار الفكر، بيروت، لبنان ط 1 1997/1418 ج 3 ص 124.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: 58]»[25].

إنها غاية السماحة إذ لم ينتصر رسول الله ﷺ لنفسه، ويطالب بحقه لأنه أهين بين أصحابه، ولم يسمح لعمر بن الخطاب ﷺ أن يعتدي على الرجل، لأن النبي ﷺ لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح مع المسلم وغير المسلم؛ لأنه يلتمس للناس أعذاراً لعدم معرفتهم قدر النبي ﷺ، ولم يقف النبي ﷺ عند هذا الحد بل وصف أمثال هذا الصنف من الناس حتى لا يخدع الناس في عبادتهم ونسكهم، حتى يحذر الناس منهم.

كما أن له ﷺ مواقف أخرى مع المشركين تؤكد سماحته، فعن عبد الله بن مغفل المزني، قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله، وكأني بغصن من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، فرفعته عن ظهره، وعلي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فأخذ سهيل يده فقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة، فأمسك بيده فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسولًا، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله، قال فكتب، فبينما نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أمانًا، فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ إلى قوله: ﴿بَصِيرًا﴾ [الفتح: 24]»[26].

لقد كان بإمكانه أن يأسرهم أو أن يقتلهم ولكن سماحته تأبى ذلك بل قال لهم ولغيرهم من أهل مكة حينما فتحها: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وقد تجلّت روح التسامح عند النبي ﷺ في دعائه ﷺ بالهداية والصلاح لمخالفيه من غير المسلمين فقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: «يا رسول الله إن دوسا قد كفرت وأبت فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس -ظنا بأن النبي ﷺ إنما رفع يديه للدعاء عليها- فقال ﷺ: اللهم اهد دوسا وائت بهم».

25- صحيح البخاري، ك استتابة المرتدين، ب من ترك قتال الخوارج، ح 6933.

26- المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: ح 2608. دار الكتب العلمية، بيروت ط الأولى، 1411-1990تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

وكذلك دعا ﷺ لأم أبي هريرة قبل إسلامها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: «كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اهد أم أبي هريرة، فخرجت مستبشرا بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء قال: فاغتسلت ولبست درعها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح»[27].

ومن صور الدعاء ما كان من اليهود حيث كانوا يتعاطسون عند النبي ﷺ على رجاء أن يقول لهم يرحمكم الله، فلم يحرمهم من الدعوة بالهداية والصلاح، فكان يقول: «يهديكم الله ويصلح بالكم»[28].

وكان ﷺ يقبل هدايا مخالفيه من غير المسلمين ﷺ فقد أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ فقيل لها الذراع. فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم» ثم دعا بها فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك» قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان كذابا استرحت منه، وإن كان نبيا فسيخبر. قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ[29].

فلم ينتقم النبي ﷺ منها مع أنه كان في أعلى مقامات القوة، ولم يثأر لنفسه وهذا حق له ﷺ، ولكنه عفا عنها ليعطي لنا النموذج الأمثل في التسامح مع غير المسلمين، ولو ترك النبي ﷺ لانتقموا لرسول الله، ولكنه أراد أن يعلمهم التسامح مع المخالف، ولو

27- مسلم، ك فضائل الصحابة، ب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيء، ح: 2524.

28- رواه البخاري في الأدب المفرد، ب إذا عطس اليهودي.

29- السيرة النبوية: لابن كثير: المكتبة العصرية: صيدا، بيروت، لبنان ط 2001/ 1421ج 2 ص 128.

كان مخطئاً.

وقد أقر بعض المستشرقين المنصفين بالحق الذي لا ينكره إلا حاقد فقد قال المستشرق غوستاف لوبون: « إن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، مما لم يقم بمثله مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المنصفون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب »(30).

هذه بعض صور من سماحة النبي ﷺ مع الأعداء من غير المسلمين، كلها رفق ولين وعطف، وليس فيها شيء من القسوة والعنف، ليعطى الدروس العملية لنا في معاملة غير المسلمين، وليضع الصورة الجلية أمام دعاة السلام من غير المسلمين في هذه الأيام الذين نزعت من قلوبهم الرحمة للمسلمين، فلا يعرفوا للرفق طريقاً، ولم ترق قلوبهم وهم يقتلون الأطفال والشيوخ والنساء، ولا يريدون من أحد أن يدافع عن نفسه وعرضه ووطنه، بل يريدون منهم أن يتجردوا من كل شيء، فإذا هم أحدهم بالدفاع عن نفسه وصف بالإرهاب والتطرف.

المبحث الثاني: صور تطبيقية من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين

لقد تأسى الخلفاء الراشدون بالنبي ﷺ في التعامل مع غير المسلمين، ولم يحيدوا عن أمر النبي ﷺ استجابة لله ورسوله، وليس هذا كلاما نظريا، ولكن التاريخ الإسلامي شاهد على أن المسلمين لم يكرهوا أحدا في أي فترة من فترات التاريخ على ترك دينه، فالإسلام دين العقل والفطرة ولا يقبل من أحد أن يدخله مكرها، تحدى الأولين والآخرين بمعجزته الخالدة، ولم يعرف في تاريخ المسلمين الطويل أنهم ضيقوا على اليهود والنصارى أو غيرهم أو أنهم أجبروا أحدا من أي طائفة من الطوائف اليهودية أو النصرانية على اعتناق الإسلام.

وكثيراً ما توضع شرائع حسنة، وأحكام عادلة، ومبادئ قيمة، ولكنها تظل حبراً على ورق، فلا توضع موضع التنفيذ، ولا يبالي بها الذين في أيديهم سلطة الأمر والنهي

30- حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارد ط دار الفكر بيروت ط 4، 1973 ج1 ص 104.

والإبرام والنقض، كما يحدث الآن في كثير من بلاد المسلمين من إذلال لهم، وتعد على من اعتدى عليهم.

ولكن ميزة المبادئ والأحكام الإسلامية أنها مبادئ ربانية الأصول، دينية الصِّبغة، ولهذا وجدت من القبول والاستجابة ما لم تجده أي شريعة أخرى أو قانون مما يضع البشر بعضهم لبعض.

وقد حفل الواقع التاريخي للأمة الإسلامية في مختلف عصورها، وشتى أقطارها، بأروع مظاهر التسامح، الذي لا يزال الناس يتطلعون إليه إلى اليوم في جل بقاع الأرض عند غير المسلمين فلا يجدونه، وقد مرت صور من هذا التسامح في عهد النبي ﷺ، رأينا فيها حقيقة التسامح الإسلامي ومداه، كما عرفنا روح هذا التسامح، والأساس الفكري والعقائدي الذي يقوم عليه. وقد كان عهد الخلفاء الراشدين ﷺ امتدادا لعهد النبي ﷺ وشهد عصر الصحابة صورا من سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين من إعانتهم بالمال أو النفس عند الحاجة، ومن كفالة العاجز منهم عن العمل، وكبير السن، وهذا هو ما سار عليه الخلفاء الراشدون ﷺ في صدر الإسلام في معاملتهم لأهل الذمة، وأسوق هنا بعض الشواهد والأمثلة التي تبين سماحة الصحابة ﷺ في معاملة غير المسلم حتى لا يتقول أحد بأن التسامح اقتصر على عصر النبي ﷺ فقط.

ففي خلافة أبي بكر الصديق ﷺ كتب خالد بن الوليد ﷺ في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق –وكانوا من النصارى–: «وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله»[31].

إن الذين يسعون إلى تقرير التكافل الاجتماعي وبيان صوره لن يجدوا أعظم من هذه الصورة في الإسلام مع مخالفيه، فهو يتسامى بمن يعيشون في كنفه، ويحوطهم برحمته وإحسانه عندما يحتاجون إلى مواساة لأي سبب من الأسباب بل، يجعلهم عيالا على بيت مال المسلمين ويرضخ له منه أيا كانت ديانتهم.

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يرضى أن يذل رجل من أهل الذمة وهو يحيا في كنف الإسلام فيعيش على الصدقة يتكفف الناس، ولكن الإسلام يحميه،

31– الخراج: أبو يوسف، دار التراث الإسلامي: مصر ط1: 2000 ص 306.

ويكرمه، ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله[32].

وكان أبو بكر ﷺ يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: « يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشر، فاحفظوها عني لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله »[33].

هذا هو المنهج الذي اتخذه الخليفة الأول لرسول الله ﷺ مع غير المسلمين يتسم بالرأفة والرحمة واللين بغير المسلمين الذين لم يعتدوا على المسلمين، حيث نهى الفاتحين عن التعدي على الضعفاء من الأطفال والنساء والشيوخ، ولم يبح التعدي على ثمارهم وأشجارهم التي تأتي لهم بما يطعمونه؛ لأن ذلك يسبب ضرراً لهم.

وأما الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ فقد سار على نهج معلمه محمد ﷺ متأسياً به في معاملة غير المسلمين، وأعطى لنا الأسوة الحسنة في التسامح مع غير المسلمين، ولم يحاب أحداً على حساب دين الله عز وجل، ولو كان المتعدي ابنه أو واليه على إحدى المدن؛ لأنه يعلم أن كل فرد من الرعية مسئول عنه أمام الله تعالى يوم القيامة، وأن لا يكلفهم فوق طاقتهم.

فقد مر عمر بن الخطاب ﷺ بباب قوم عليه سائل يسأل، وكان شيخاً كبيراً ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة: 60] والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل

32- انظر: الموسوعة في سماحة الإسلام: محمد الصادق عرجون: ج 1 ص 446.

33- تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري أبو جعفر: دار الكتب العلمية، بيروت ط: 1، 1407 ج2ص246.

الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[34].

وكان ﷺ يراعي أحوال غير المسلمين من الفقراء الذين دارت عليهم الأيام، وغيرت حالتهم من الغنى إلى الفقر، فكان ﷺ لا يأخذ منهم الجزية حتى لا يرهقهم، ولم يكتف بذلك بل كان يصرف لهم من بيت مال المسلمين ما يكفيهم حتى لا يترددوا على أبواب الناس سائلين الصدقة، فحين مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بشيخ من أهل الذمة يقف على الأبواب يسأل الناس قال: «ما أنصفناك إن كنا أخذنا المال في شبيبتك، وضيعناك في شيبك ثم أجرى عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه»[35].

ولم يظلم أحد من أهل الذمة زمن عمر بن الخطاب لأنه كان شديداً في الحق ولو على نفسه وأهل بيته، فلم يخف في الله لومة لائم، ولم يجامل أحداً على حساب دين الله عز وجل، وقد تجلى هذا التسامح فيما يلي:

«لما اشتكت إليه امرأة قبطية من عمرو بن العاص الذي ضم بيتها إلى المسجد أرسل إليه عمر وسأله عن ذلك، فقال: إن المسجد ضاق بالمسلمين، ولم أجد بدا من ضم البيوت المحيطة بالمسجد، وعرضت على هذه المرأة ثمنا باهظا فأبت أن تأخذه، فادخرته لها في بيت المال، وانتزعت ملكيتها مراعاة للمصلحة العامة، لكن الفاروق عمر أمره بأن يهدم هذا الجزء الذي ضم للمسجد ويعيد بناءه كما كان لصاحبته»[36].

وقد أعطى عمر بن الخطاب للولاة من بعده المثل الأعلى في معاملة غير المسلمين، حيث منحهم الأمان على كل شيء؛ حتى لا يتسرب إليهم الخوف من المسلمين بأن تضيع حقوقهم، وهذا نص الوثيقة:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسقيمها، وبريئها، وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطي أهل

34- الخراج، أبو يوسف، ص 126.

35- أحكام أهل الذمة لابن القيم ص38 تحقيق د. صبحي الصالح جامعة دمشق.

36- من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي ص 85 بتصرف.

المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله؛ فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة»[37].

ولم يقف الأمر بعمر بن الخطاب عند انتظار شكاوى غير المسلمين؛ بل كان يسأل كل من يفد من البلاد التي تحت إمرته عن أحوال أهل الذمة دون أن يعلموا أنه أمير المؤمنين خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فكانوا يقولون له: «ما نعلم إلا وفاءً»[38] أي بمقتضى العهد والعقد الذي بينهم وبين المسلمين، وهذا يقتضي أن كلاً من الطرفين وفى بما عليه.

وعن مجاهد قال كنت عند عبد الله بن عمرو ﷺ وغلامه يسلخ شاة فقال: «يا غلام إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي فقال رجل من القوم: اليهودي أصلحك الله؟ قال: سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أو روينا أنه سيورثه»[39].

وهذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله لم يغفل عن أهل الذمة في حسن المعاملة لهم، والرفق بهم، والسؤال عن أحوالهم؛ حتى لا تضيع حقوقهم وسط المسلمين، فكان عندما يعلم بظلم أحد من غير المسلمين ولو من أبناء الأمراء فكان يرد إليه مظلمته، حتى لا يعيش المجتمع في همجية يأكل القوي الضعيف، ففي إحدى الأيام «أمر مناديه ينادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم أقطعنيها

37- تاريخ الطبري: الطبري ج2 ص 449

38- المرجع السابق: ج 4 ص 218.

39- الأدب المفرد، البخاري: ب: جار اليهودي ح: 128.

أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته، فردها عليه »[40].

بمثل هذه المعاملة ساد المسلمون الأوائل، وكانت معاملتهم محط إعجاب مخالفيهم، فشهدوا لهم بالسمو في أخلاقهم، والتسامح في معاملتهم، وإن المقارن بين سماحة المسلمين حين يكتب لهم النصر والتمكين، وبين ما سجله التاريخ من وحشية في الحروب الصليبية، وخلال فترات الكشوف الجغرافية، والاستعمار الذي حل بكثير من بلاد الإسلام حقبة من الزمن يتجلى له الفارق بين دين الحق دين التسامح والعفو، وبين أتباع الأديان المحرفة.

وبعد: فهذه عصور مشرقة من الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين، لكنى أريد أن أنقل سريعاً إلى عهود أخرى حتى لا يدعى أحد من غير المسلمين أن عصور الخلفاء الراشدين لا تساويها عصور، فأقول إن أخلاق الفاتحين في كل عصور المسلمين واحدة؛ لأنها مستقاة من منهج النبوة.

وأنتقل بالقارئ إلى القرن الخامس الهجري، لأنقل له صورة حية لمعاملة محمد الفاتح لأهل القسطنطينية، ومدى التسامح والرفق والرحمة بهؤلاء الناس، وكيف أنهم تمتعوا بنصيب وافر من الحرية والأمن والاستقرار تحت راية الإسلام والمسلمين.

ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الفاتح بعد سقوط القسطنطينية، وإعادة إقرار النظام فيها أن ضمن ولاء المسيحيين بعد أن أعلن نفسه حامى الكنيسة الإغريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريماً قاطعاً، ومنح البطريق الجديد مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة، والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق، وقد تسلم جناديوس أول بطريق بعد الفتح العثماني من يد السلطان نفسه عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب، ومعه كيس يحتوى على ألف دوكة ذهبيه[41].

وهذا اعتراف من غير المسلمين بالتسامح الذي اتصف به الفاتحون في معاملة

40- البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، د ت، ج 9 ص 213.
41- حضارة العرب: غوستاف ليبون ص170، 171.

أهل البلاد التي يفتحونها، فلم يسيئوا إليهم، ولم يرغموهم على اعتناق الإسلام؛ بل تركوا لهم الحرية في اختيار الإسلام ديناً لهم، وقد أقر بهذه الحقيقة غوستاف ليبون حيث قال: « كان يمكن أن يعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون نشره في العالم، فلو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت بعد غير خاضعة لهم، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين يوم دخلوا بلاد سوريا مؤخراً، ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسراً، فعاملوا أهل سوريا ومصر وأسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه فيما مضى في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم »[42].

وقالت المستشرقة الإيطالية لورافيشسيا عن المعاهدات التي وقعها المسلمون مع الذميين قالت: « منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة وتقاليدها القديمة شرط أن يدفع الذين لا يرضون الإسلام ديناً ضريبة عادلة إلى الحكومة تعرف بالجزية، لقد كانت هذه الضريبة أخف من الضرائب التي كان المسلمون ملزمين بدفعها على حكوماتهم نفسها، ومقابل ذلك منح أولئك الرعايا (المعروفون بأهل الذمة) حماية لا تختلف في شيء عن تلك التي تمتعت بها الجماعة الإسلامية نفسها، ولما كانت أعمال الرسول والخلفاء الراشدين قد أصبحت فيما بعد قانوناً يتبعه المسلمون فليس من الغلو أن تصر على أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامح الديني، بل تجاوز ذلك ليجعل التسامح جزءاً من شريعته الدينية »[43].

وبعد فهذا قليل من كثير من صور التسامح الإسلامي مع غير المسلمين في عصور الإسلام المتتالية؛ ليعلم الجميع أن منهج الإسلام واحد لا يختلف، وليقف المسلم على تاريخ إسلامه ليعتز به، وينفي عنه افتراء المفترين، ويعلم أن دينه عدل لا ظلم فيه، ولا إرهاب، ولا اعتداء على حرمات الآمنين في بيوتهم الذين حافظوا على حرمات غيرهم.

42- حضارة العرب: غوستاف ليبون: ص 719-720.

43- دفاع عن الإسلام: لورافيشيا فاغليري ط دار العلم للملايين، بيروت 1975ص 34-35.

المبحث الثالث: شهادات غير المسلمين لسماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين

لم يخل عصر من العصور منذ فجر الدعوة الإسلامية ممن سطر شهادات ظاهرة بينة من غير المسلمين من العلماء والمفكرين؛ لما رأوا من سماحة هذا الدين، وتيسيره ما بهر عقولهم، وأخذ بألبابهم، ورأوا من سلوك أهله ما دعاهم إليه، فاستجابت نفوس الكثيرين إليه وإلى أهله وإن لم يؤمنوا به، فدون التاريخ شهاداتهم له ولأهله بحسن المعاملة والسماحة العظيمة، حتى يفخر المسلمون، ويعتزوا بإسلامهم، ويقرأ غير المسلمين الذين لم يفقهوا دين الله تعالى حتى لا يفتروا عليه.

فمن ذلك ما كتبه نصارى الشام في صدر الإسلام سنة 13هـ إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ يقولون: « يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا »[44].

واستمر هذا النهج في معاملة غير المسلمين عبر تاريخ الإسلام في عصوره الأولى، وفي الوقت الحاضر يعيش طوائف عديدة من النصارى في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي، وهي شاهد على سماحة الإسلام جعلت المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد يقول في كتابه الدعوة الإسلامية: « لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح »[45].

وقال أيضاً: إن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح[46]. وقال أيضا: « لما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من

44- فتوح البلدان، البلاذري، دار الهلال، بيروت، ط1، 1403هـ، ص 139.
45- الدعوة الإسلامية لتوماس أرنولد مكتبة النهضة، مصر، ط 3، 1970م ص242.
46- المرجع السابق: ص 70.

الخلافة»[47]. وقال أيضاً: «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام، أوعن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي»[48].

ويقول غوستاف لوبون عن معاملة المسلمين لغير المسلمين: وكان عرب أسبانيا خلال تسامحهم العظيم يتصفون بالفروسية المثالية، فيرحمون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم وما إلى ذلك من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوربا منهم مؤخرا[49].

وقال أيضاً: «رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفًا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته» وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا

ويقول هنري دي شامبون مدير مجلة (ريفي بارلمنتير) الفرنسية: لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على العرب المسلمين في فرنسا لما وقعت بلادنا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية التي دفع إليها التعصب الديني المذهبي، لولا ذلك الانتصار الوحشي على المسلمين في بواتييه لظلت أسبانيا تنعم بسماحة الإسلام، ولنجت من وصمة محاكم التفتيش، ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون، ومهما اختلفت المشاعر والآراء حول انتصارنا ذاك فنحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، مدعوون لأن نعترف بأنهم كانوا مثال الكمال البشري في الوقت الذي كنا فيه مثال الهمجية[50]. وكانت سماحة الإسلام سببا في إسلام الشاعر الأمريكي رونالد ركويل فقال بعد أن أشهر إسلامه: لقد راعني حقا تلك السماحة التي يعامل بها الإسلام مخالفيه، سماحة في السلم، وسماحة في الحرب، والجانب الإنساني في الإسلام واضح في كل وصاياه[51].

47- الدعوة الإسلامية لتوماس أرنولد: ص 81.

48- المرجع السابق: ص 99.

49- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص 344.

50- صور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، ط 15، 1418هـ ص 420.

51- معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي: إدوارغالي الذهبي، مكتبة غريب، مصر، ط 1، 1993م ص49.

إن عظمة هذا الدين لا تخفى إلا على من جهل حقيقة الإسلام، أو عميت بصيرته، عنه أو كان به لوثة من هوى أو حقد مقيت، وإلا فإن سماحة الإسلام في المعاملة وتيسيره في كل أموره، ظاهر بأدنى تأمل لمن طلب الحق، وسعى إلى بلوغه، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولم يقف تسامح المسلمين عند المعاملة الحسنة فقط؛ بل تعدى إلى التفاهم بين الناس، فهو ليس دين طلاسم لا يعلمها إلا رجال الدين فقط، بل شمل هذا التسامح كل ما يتصل بجوانب الحياة المختلفة، فلا يصطدم مع الفطرة السليمة، ولا يعادى العلم، كما عادته الكنيسة؛ بل دعا إلى التعلم والتفكر والتأمل، والنظر في ملكوت السموات والأرض، ورفض كل صدام بين تعاليم الدين والنظريات العلمية التي توافق الدين الصحيح، وهذا ما شهد به الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا حيث قال: « إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة».

وقد أغرقت اليهودية المحرفة في الماديات، وأهملت الجانب الروحي، واتخذت المسيحية المحرفة الجانب الآخر فغلبت الجانب الروحي على الجانب المادي، ظناً منهم أن هذا يقربهم من الله تعالى، واستعانوا في ذلك بالإكثار من صور القديسين والرهبان، فملأوا بها كنائسهم، أما الإسلام فلم يهمل جانباً على حساب آخر، وهذا من أعظم صور التسامح الإسلامي، وهذا ما شهد به الشاعر الفرنسي (لامارتين) حيث قال: « الإسلام هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يفي بمطالب البدن والروح معاً، دون أن يُعرِّض المسلم لأن يعيش في تأنيب الضمير ... وهو الدين الوحيد الذي تخلو عباداته من الصور، وهو أعلى ما وهبه الخالق لبني البشر »[52].

وقال (ول ديورانت): « لقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير، ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها

52- من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ص 94.

الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ، والأَرِقَّاء، والشيوخ، والعَجَزة، والعُمي، وشديدو الفقر، وكان الذميون يعفون في نظير ذلك مِن الخدمة العسكرية، أو إن شئت فقل لا يُقبلون فيها، ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها 2.5 ٪ من الدخل السنوي، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تُقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم، وقضاتهم وقوانينهم»[53].

واعترف ترتون بتسامح الحكام المسلمين فقال: «كان سلوك الحكام المسلمين في الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذه على الذميين وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة قط من العمال النصارى واليهود: بل إنهم كانوا يتولون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها فاكتنزوا الثروات الضخمة، وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة، كما اعتاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية»[54].

ولم تقف شهادة غير المسلمين على سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين عند الرجال فقط بل امتدت إلى الجنس الأخر وهو النساء، حيث اعترفت إحدى المستشرقات بسماحة الإسلام، منهن المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه حيث قالت: «العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم، وأديرتهم، وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ، وبعد فظائع الأسبان واضطهاد اليهود؟ إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا أنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية. فبطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف»[55].

53- قصة الحضارة: ويل ديورانت جـ 13 ص131.

54- أهل الذمة في الإسلام ص 256.

55- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، دار صادر، بيروت ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط 10، 1423هـ 364.

وقد نفت هذه المستشرقة الإكراه عن المسلمين، حتى لا يفتري أحد ويقول إن المسلمين يفرضون دينهم بالقوة على غير المسلمين، فقالت: «لا إكراه في الدين، هذا ما أمر به القرآن الكريم، فلم يفرض العرب على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فبدون أي إجبار على انتحال الدين الجديد اختفى معتنقو المسيحية اختفاء الجليد، إذ تشرق الشمس عليه بدفئها! وكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة، هكذا انعطف الناس حتى من بقي على دينه، إلى السادة الفاتحين»[56].

وبعد فهذه بعض من شهادات غير المسلمين ناطقة بالحق الصراح الذي لا يحتمل تأويلا ولا تبديلاً، ولم تقتصر على عصر معين، بل ضمت كل عصور المسلمين كلها، ولم تقتصر على جنس معين، بل شملت الرجال والنساء، ولم يجبروا على الاعتراف بهذا الحق، بل الأمانة العلمية تتطلب منهم ذلك، ومما يحزن القلب أن الغرب لا يريد أن تصل الحقيقة إلى الغرب، حتى لا يدخل الإسلام، ولكن الله غالب على أمره، وسوف يعم الإسلام جيمع الأرض، وهذه سنة الله في الأرض.

الخاتمة

بعد عرض هذا البحث الموجز تتضح بعض النتائج، ومن أهمها ما يلي:

1. أن الشرائع التي تنزلت من قبل المولى عز وجل ولم تنلها الأيدي بالتحريف لا تظلم أحداً، ولا تحابي أحداً على حساب أحد، ولو كان المعتدى عليه غير مسلم؛ لأنها قائمة على العدل المطلق.
2. أن القرآن الكريم مليء بالآيات التي تدعو إلى السماحة مع غير المسلين؛ ليطمئن غير المسلم في ديار المسلمين، ويأمن على نفسه وأولاده.
3. أن النبي ﷺ هو النموذج البشري الكامل في معاملة غير المسلمين رحمة وسماحة وعدلاً؛ لأنه القدوة العملية لأمته حتي لا تضيع حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي بحجة أنهم غير مسلمين.
4. أن الصحابة ﷺ ساروا على منهج القرآن الكريم والاقتداء بالنبي ﷺ قولاً وعملاً، في معاملة غير المسلمين، فلم يظلموا أحدا من غير المسلمين ولو كان خلفاء أو أمراء.
5. أن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، وأن الحق سينتصر مهما بعد الزمان، وطغى الباطل؛ لأن هذه سنة من سنن الله الكونية، فمهما ضعف المسلمون

56- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص: 364-368.

فإن الحق سيعلو في يوم من الأيام.

6. أن من الحق ما شهدت به الأعداء في تلك السماحة فعلى مر التاريخ أقر بالحق أناس على غير ملة الإسلام وخلفوا الكثير من الشهادات الحقة؛ ليثبتوا للعالم كله أن دين الله غالب مهما ضعف المسلمون، وأن معهم الحق الذي لا يتبدل ولا يتغير.
7. أن إسلام كثير من غير المسلمين كان سبب اطلاعهم على التاريخ الإسلامي الذي ملئ بالعدل والسماحة مع غير المسلمين، وظلم غير المسلمين للمخالفين لهم في ديانتهم.
8. إقرار غير المسلمين أنهم لم ينعموا ولم يستقروا ولم ينالوا حقوقهم إلا في ظل الدولة المسلمة، فكان الواحد منهم يشكو الوالي إلى الخليفة، وكانت حقوقه ترد إليه كاملة ما دام صاحب حق؛ لأن السلام يحث على ذلك.

ولله الحمد والمنة، وهو حسبنا ونعم الوكيل

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
2. أحكام أهل الذمة لابن القيم: تحقيق د. صبحي الصالح جامعة دمشق
3. الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي: دار البشائر الإسلامية، بيروت الطبعة الثالثة، 1409-1989 تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
4. أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1422/2001 تحقيق: كمال بسيوني زغلول.
5. أهل الذمة في الإسلام: ترتون. بدون طبعة
6. البحث عن الدين الحقيقي: المنسيور كولي ط 1928.
7. البداية والنهاية: للحافظ ابن كثير، دار الفكر، بيروت، د ت.
8. تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بركلمان، ط دار العلم للملاين بيروت ط 4، 1965
9. تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري: دار الكتب العلمية، بيروت ط: 1، 1407
10. التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني: دار الكتاب العربي، بيروت ط 1، 1405تحقيق: إبراهيم الأبياري.
11. جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، 1420 هـ- 2000 م
12. حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارد ط دار الفكر بيروت ط 4، 1973
13. حضارة العرب: غوستاف ليبون
14. الخراج: أبو يوسف: دار التراث الإسلامي: مصر ط1: 2000.
15. الخصائص الكبرى: جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ-1985
16. الدر المنثور: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي: دار الفكر، بيروت، 1993.
17. الدعوة الإسلامية لتوماس أرنولد مكتبة النهضة، مصر، ط 3، 1970م
18. دفاع عن الإسلام: لورافيشيا فاغليري ط دار العلم للملايين، بيروت
19. رياض الصالحين: النووي: ط. المكتب الإسلامي.

20. السيرة النبوية: لابن هشام، دار الفكر، بيروت، لبنان ط 1 1418/1997.
21. السيرة النبوية: لابن كثير: المكتبة العصرية: صيدا، بيروت، لبنان ط 2001/ 1421.
22. شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، دار صادر، بيروت ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط 10، 1423هـ.
23. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي دار ابن كثير، اليمامة، بيروت الطبعة الثالثة، 1407–1987 تحقيق: د. مصطفى ديب البغا
24. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: دار إحياء التراث العربي، بيروت تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي
25. صور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، ط 15، 1418هـ
26. فتوح البلدان، البلاذري، دار الهلال، بيروت، ط1، 1403
27. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: دار المعرفة، بيروت، 1379.
28. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة 807، بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر طبعة دار الفكر، بيروت، طبعة 1412 هـ الموافق 1992
29. معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي: إدوارغالي الدهبي، مكتبة غريب، مصر، ط 1، 1993م
30. الموسوعة في سماحة الإسلام: محمد الصادق عرجون
31. المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: دار الكتب العلمية، بيروت ط الأولى، 1411–1990تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا
32. معجم اللغة، مكتبة الخانجي، مصر، ط3، 1402 هـ
33. النهاية في غريب الحديث، مجد الدين ابن الأثير، دار أنصار السنة، لاهور.